ضمن دراسات ما بعد الإستعمار: الآليات الأنتروبولوجية والسوسيو–نفسية لممارسة النكران واللاّإعتراف والتسلط وتكريس السيطرة على الآخر
بحث في ممارسات الإنسان الأروبي الكولونيالي ضد الإنسان الجزائري نموذجا

أ/: بوعبدالله محمد جامعة حسيبة بن بوعلي–الشلف

ملخص:

على ضوء دراسات ما بعد الإستعمار (poste colonialisme) واجتهادات مفكري هذا التيار من أمثال فرانز فانون، ألبير ميمي، إيمي سيزير، إدوارد سعيد، هومي بهابها، وسبيفاك غاياتري؛ مستهدفين بذلك تفكيك الخطاب الاستعماري، فهم ثنائية الأنا والآخر، ودراسة التابع ضحية الممارسات الاستعمارية؛ جاءت دراستنا هذه نبتغي من خلالها تفكيك وتشريح لبعض آليات التسلط والهيمنة الممارسة من قبل الإنسان الكولونيالي وخطابه الاستعماري، هذا الاستعمار الذي يُعبِّر عنه الباحث رامي أبو شهاب بـ "المخاتلة والرسيس" وهو عنوان كتابه ضمن دراسات ما بعد استعمار، ليعالج فيه الممارسات الاستعمارية وما يحيط بها من توصيف؛ حيث تتجاوز كلمة المخاتلة دلالات المخادعة بمعناها المباشر إلى فعل المراوغة والمغافلة، في حين يحيل لفظ الرسيس إلى دلالات متعددة من قبيل: أول الحمى، العشق، وبقية الشيء وأثره، كتعبير عن سمة ذلك الاستعمار وتداعياته على تلك المجتمعات.

ويحيلنا هذا إلى مفهوم النيوكولونيالية الذي صاغه الرئيس الأول لغانا المستقلة كوامي نكروما والذي يعني تحول الاستعمار الكلاسيكي إلى استعمار آخر أكثر ذكاء ودهاء وأبرع في التخفي والإندساس بحث يصعب الكشف عنه ومقاومته، وهذا ما جعل رواد ما بعد الاستعمار وبعض المفكرين المجتهدين ضمن هذه النظرية من أمثال حسن حنفي يدعو إلى إستشراق مضاد أو ممارسة علم الإستغراب الذي يستهدف تفكيك الثقافة الغربية تشريحا وتركيبا، لتقويض خطاب التمركز، وفضح مقصدية الهيمنة والتسلط.

الكلمات المفتاحية: النيوكولونيالية، دراسات ما بعد الاستعمار، آليات السيطرة، اللاّإعتراف.

Abstract :

Our studies aim at contributing to the dismentling of the colonial discourse, through searching in that colonial mechanisms, doings and practices done by colonists against the pure inhabitants of the land in order to dominate them. These mechanisms and practices are considered by specialists among the most serious psychological traumas. We mention here the case of the thinker frantz fanon who studies the french colonialism is the most serious psychological trumas owing to the severe cases of illnesses suchas nerves, constant stress and tiredness. This attitude is supported by the french thinker john paul sartre in his introduction to frantz fanon book entitled « the tortured in the earth »

in which he says : « franch was a name of a country but now it has became synonymous with nervousness », the importance of this study is to help in understanding that psychological and socio-disorders experienced by the post-colonial society on the one hand, and the awareness of the characteristics of colonialism and its dangerous colonial mechanisms, which are more subtle and more harmful as described by kwame nkrumah on the other hand.

Keywords:Neocolonialism, Postcolonial Studies, Mechanisms of control, Non-recognition.

مقدمة:

إستخدم المستوطنون الأروبيون بالجزائر إبان المرحلة الكولونيالية العديد من الميكانيزمات والآليات العنصرية والإحتقارية المستمدة من مختلف الحقول الاجتماعية والنظريات الأنتروبولوجية منها، السوسيولوجية والنفسية؛ حيث يمتلك الأروبيون والفرنسيون العديد من الأعلام المتمرسين في هذا الميدان لتعزيز الإحتقار وغرس الدونية لدى الإنسان الجزائري الأهلي، وجعله يقتنع بهاته الأفكار البعيدة عن الروح الإنسانية والأخلاق الكونية كما يدعو إليها العلامة الكندي تشارلز تايلور، والفيلسوفة الألمانية سيلا بن حبيب، أو توفير حياة الرفاه كما يوردها زيغمونت باومان في كتابه الحياة السائلة،التي تتطلب حسبه العدالة التوزيعية وهو نفس ما تدعو إلية نانسي فريزر، وإنما ممارسات الإنسان الكولونيالي والأروبي في الجزائر يعبّر عنها بشكل جلي كتاب 'مجتمع الإحتقار' (La societé mépris) لأكسل هونيث المدير الحالي لمعهد العلوم الإجتماعية أو ما يسمى بمدرسة فرانكفورت الذي يُعرِي ممارسات الجور الاجتماعي من إنكار، إزدراء، مهانة، لاإعتراف، إقصاء، تهميش، وممارسة حالات اللامرئية والإماتة النفسية.

وهذا ما يؤكده المفكر التونسي ألبير ميمي (Albert Memmi) عندما يتطرق إلى مفهوم العنصرية وصورِها لدى الإستدماري-المستعمِر- فيرى أن الإستدماري يعتمد على البعد السوسيولوجي بالوشم البيولوجي أو الميتافيزيقي معتبرا إياه المحرك الجوهري للمستعمِر؛ والتي يسميها الأستاذ مصطفى الأشرف بالنظرية النقيض (Antithèse) التي إرتكز عليها الإستعماريون في تبرير سلوكياتهم العنصرية والإحتقارية ونشر الدونية وهذا ما سنَفْصَّل فيه عندما نتطرق لبعض وأهم الميكانيزمات السوسيولوجية المستخدَمة من طرف المستوطنين لتكريس السيطرة والمهانة واللاإعتراف وممارسة اللامرئية (L'invisible) اتجاه الإنسان الجزائري بمفهوما السوسيولوجي والنفسي، ولكن لابأس قبل ذلك ننظر في بعض من ملامح بناء الذهنية الكولونيالية لدى الإنسان الأروبي بالجزائر، لنتحرى عن أهم مرتكزاتها وعناصرها.

أولا:أهمية الاحتقار والعنصرية في بناء ذهنية الأقلية الأوروبية.

تعتبر الثقافة الشعبية مدخل علمي مهم لفهم بناء ذهنية الأقلية الأوروبية فبداية دعنا نتطرق إلى أهمية تلك الإصدارات الأدبية كالقصص والحكايات والروايات في التحليل الاجتماعي وفي فهم ذهنية ونمط تفكير فئة ما من المجتمع، حيث تُعبّر اهتمامات الشخص وميوله عن ملامح ذهنية وبناء معين لشخصية هذا الإنسان.

فيَعتبِر رواد العلوم الاجتماعية هذا البناء جزءا وأساسا من أي معاملات، بدءا من العلاقات الشخصية كالصداقة إلى العلاقات العامة كمفاوضات العمل والعلاقات الدولية كالاتفاقيات التجارية أو شن الحروب، حيث يتفق كل من س.رايت ميلز (C.wright Mills) ومارفن سكوت(Marvin scott) وستانفورد ليمان (Stanford lyman)، بأنها موقف لفظي لشرح سلوك يعتبر إنحرافي، فيما يعتبرها دفيد ماتزا (David Matza)بأن القصص والحكايات تستخدم لإدانة الآخرين، وإنكار المسؤولية عن الأمور السيئة وإلقائها على الآخرين، وهذا بالضبط ما سنتناوله بالتحليل عندما نعالج تلك النعوت والأوصاف السيئة التي كانت تَرِد في القصص الشعبية عند الأقلية الأوروبية بالجزائر حيث يغلب عليها التشبيه بالحيوانات وإلصاق الأوصاف المرتبطة بالتخلف والدونية والبدائية مثل: سال أراب، راتون،... وغيرها حيث يقول فيها أبو القاسم سعد الله بأنها تحتاج إلى معجم لكتابتها نظرا لكثرة هذه الألفاظ اللاّأخلاقية.

وتشير مختلف السرديات في بعض الأحيان إلى التعبير عن وضعية علاقة اجتماعية بين ذاتية بين فئات المجتمع، وهذا ما تشير إليه باتريسيا تورنر (Patricia Turner)التي تطرقت إلى القصص التي كان ينشرها السود في أمريكا، والتي تعبّر عن قصص الاضطهاد التي يعانيها السود، وهي تعبير كذلك عن قصص تآمرية لجماعة أو فئة ضد أخرى.

وهذا ما سيتجلى لنا من خلال تناول الإصدارات الأدبية كروايات لاكاغايوس التي كانت تحقق رواجا واسعا لدى الأروبيين بالجزائر:

أ–مكون الاحتقار في ذهنية المستوطنين:أما عن تناولنا للثقافة الشعبية للمستوطنين الأروبيين فإنها حسب الأستاذ أبو القاسم سعد الله هي تعبير عن الحياة اليومية للإنسان الأروبي مع الفرد الجزائري، فهي سلوك الإنسان مع الإنسان الذي أصبح في الواقع يعبر عن علاقة حيوان مع حيوان، وهذه الثقافة الشعبية للأقلية الأروبية تعبّر عنها ما نشرته الصحف الكولونيالية وما بثته المسرحيات والنشريات والروايات التي يشرف عليها هؤلاء المستوطنون، والتي يُنظر إليها سوسيولوجيا على أنها مؤشر لفهم تكوين البنية الذهنية للأقلية الأوروبية ونوعية العلاقة والمعاملة التي تبديها نحو الجزائريين.

وهذا ما يؤكده أبو القاسم سعد الله كون أن هذه الإصدارات الشعبية الرخيصة–وهي المسماة بروايات زوج سوردي– تعتبر مصدر مهم لفهم عقلية الأقدام السوداء، وتعطينا المفاتيح لنظرة داخلية مدهشة في الذهنية الجماعية للإنسان الأروبي الجزائري.

ونعني بهذه الإصدارات بالخصوص سلسلة لاكاغايوس(la cagayous) التي ظلت تصدر مدة ثلاثة عقود تقريبا من 1891-1920 في إصدارات أسبوعية في ستة عشرة صفحة، وكانت تستعمل اللهجة الشعبية للمستوطنين الحضريين والتي يطلق عليها باتاويت (Pataoite) وهي عامة فرنسية (Patois) طُعِمت بعديد الألفاظ من اللغات الإسبانية والإيطالية والمالطية وكذا العربية، وكان بطل هذه الروايات الذي أخذ شخصيات عدة حسب كل عدد فإنه دائما ينتصر ويؤدب العربي واليهودي؛ وهذا ما جعل الأروبيون بالجزائر يتغنون به مرددين: (nous sommes tous des cagayous) وهي تعني كلنا كاغايوس، وهذا معناه أننا كلنا أبطال نؤدب وننتصر دائما ونسيطر على العربي.

وهذا بالإضافة إلى إصدارات أسبوعية أخرى مثل بابالويت (Papa louette) التي صدرت ثماني سنوات من (1906-1914)، ولوكوشون، لاكرافاش، لوديابل أكاترا، لو كوكو ألجيريان، وكلها ظهرت بين 1898 و1912.

وهذه الإصدارات رغم إختلافها وتعددها إلا أنها تتفق في كونها جاءت في قالب سخري، تهكمي، إستهزائي، إحتقاري،–تلك **المفردات والتعابير** التي وردت في صحف وروايات الأقدام السوداء لوصف الإنسان الجزائري هي مفردات وتعابير قد يتحرج بعض الجزائريين اليوم من نطقها حسب تعبير الأستاذ أبو القاسم سعد الله– حيث أن المفردات والتعابير التي إستخدمها المستوطنون في صحفهم ورواياتهم ومختلف إصداراتهم الأدبية والثقافية تعتبر تراث مهم للتحليل السوسيولوجي من أجل فتح أيقونة العقلية الأروبية والإطلاع عليها من أجل فهم بناء الذهنية الأروبية في الجزائر وكيفية تعاملهم مع الجزائريين للوصول لفهم مختلف السلوكيات الكولونيالية التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

ولهذا نجد علماء الأنتروبولوجيا يولون أهيمة خاصة إلى النعوت التي يستخدمها الناس في حياتهم اليومية، حيث يرون أن اللازمات (labeles)ذات القوة الفاعلة تفقد بعض قوتها عندما تتغير من إستعالها في الأسماء إلى النعوت، حيث تضاف هنا خصائص تحديد الموضوع بطريقة أكثر دقة وصدق بإعتباره فرديا، فيستخدم "العربي" بدل "الشعب" حيث يتضمن نعت العربي عدة خصائص إحتقارية فمثلا حكاية عربية (أي قصة معقدة)، وشغل عربي (أي عمل غير متقن)، وكل شيء صنع على الطريقة العربية يكتسب بذلك معنى منحط ووحشي، متخلف، وغير جمالي؛ كما تحول اسم فاطمة إلى نعت وصفة أصبح يطلقه المستوطنون على النساء العربيات وهذا لأن اسم فاطمة تحول إلى مرادف قليلة الأدب...

ومن **اللازمات** (**labels**)العديدة والأكثر إنتشارا وإستعمالا من طرف المستوطنين والتي يقول فيها أبو القاسم سعد الله أنها تستحق أن نضع معجم خاص بهذه الألفاظ والتعابير والنعوت واللازمات الكثيرة ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- **كلمة العربي أو البيكو**: فالأجزاء المؤلفة لصورة البيكو في ذهنية الأقدام السوداء مكونة من خمسة لوازم رئيسية وهي أنه: وحشي، فقير، قذر، غشاش، وشهواني.
- **لازمة فقير أو مسكين**: والتي إرتبطت بها عدة ألفاظ وعبارات من اللهجة الباتاواتية مثل مزلوط (فقير، مسكين)، أو عبارة يعمل بطال (أي ليس له عمل).
- **لازمة قذر أو صال أراب**: أي العربي القذر وهنا نذكر كيف صوّر الشاعر السافر–بابا لويت– مدينة الجزائر حيث قال: "عرب خسيسون وكريهو الرائحة في قذارتهم الأهلية... تصيب مدينة الجزائر بالعدوى، وها هو القمل يتحرك بحرية حيثما شاء في عربات الترام".
- كما تعلقت بالجزائري لازمات مثل **معدي** (**infectien**)،**السراق** (**أي السارق، اللص**)، **والخبيث، الشهواني** بالإضافة إلى أنه **إنسان خشن غير ظريف، وغير متأدب**وهو بإختصار إنسان دون البشر وحيوان متوحش،... وغيرها من الألفاظ والتعابير البذيئة والدنيئة.

ولهذا يختصر الأديب الجزائري مولود فرعون في "يومياته" ملامح وصورة الجزائر والأهلي في الذهنية الكولونيالية عندما يتساءل من هو الأهلي في أعين الأروبي؟، «إنه عامل مشترك، خادمة منزل، مخلوق غير متجانس بطرق مثيرة للضحك، وعادات غريبة، ولغة مستحيلة»

فإذا كانت إصدارات كاغايوس قد حافظت على شعبيتها بين الطبقة الدنيا والتي كانت إصداراتها الأسبوعية سرعان ما يختطفها الناس من الأكشاك وتباع عن طريق البريد، فإن الطبقة التي توصف بالعليا (أتحفظ على هذا الوصف) فقد تقززوا على لغتها السوقية، وهذا ما دفعنا للبحث عن صورة الجزائري في المخيلة الفرنسية لدى أدبائها المرموقين والمعروفين.

فكانت الإصدارات الأدبية والثقافية الواسعة لدى الأدباء المعروفين بمستوى إنتاجاتهم، والتي تعد مادة إستهلاكية ثقافية للطبقة العليا سوءا للفرنسيين (في فرنسا) أو المستوطنين الأوروبيين في الجزائر، فوجدنا أن هذه الإصدارات الأدبية لم تختلف عن الإصدارات الأدبية للطبقة الدنيا فكلاهما صوّر الجزائري بالإنسان المتوحش أو الحيوان دون البشري، وبالكائن المتخلف الذي لا يمكنه أن يتعلم أو يتطور بحكم الدونية الحتمية والقصور البيولوجي المكون للإنسان الجزائري وعليه فهو في حاجة ملحة في اعتقادهم لمن يقوده ويطوّره ويخرجه من حالة القصور والتخلف والبدائية التي يعيشها.

وهذا ما يؤكده محمد الطيبي الذي يرى أن المدونة النصية للفكر والأدب الاستعماري تتجلى فيها ثنائية الهوية المتعاكسة والمتباعدة بين الصفات الجيدة والإيجابية التي يحملها المستعمِر والصفات السيئة والسلبية التي تُمثل المستعمَر، وهذا ما يبينه الجدول الأتي:

صورة المُتسعمَر الجزائري	صورة المُستعمِر الفرنسي والأروبي
- وسخ ورث وبشع	- جميل وأنيق ووسيم
- أمي وجاهل	- فاهم ومتفهم ومتعلم
- فقير ومتشرد	- ملاك وغنى ومثابر
- كسول وخامل	- محب للعمل
- متوحش وعنيف وفظ وبهيمة	- إنساني ورؤوف
- بدائي لا تاريخ له ولا حضارة	- صاحب تاريخ ومدنية وحضارة

- جدول يمثل صورة كل من المستعمر والمستعمر في أدب الطبقة العليا الأروبية وهكذا تكامل الثقافة الشعبية والإصدارات الأدبية لدى الطبقة الدنيا مع صورة المستعمر الجزائري والإنسان الأهلي في مخيلة وثقافة الطبقة العليا وإصداراتها الأدبية.

ب–مكون العنصرية في ذهنية المستوطنين: هنا نجد الكاتب اليهودي "ألبير ميمي Albert) (Memmiيُورد في كتابه "صورة المستعمر" مفهوم العنصرية كإحدى أوجه ومكونات الإستدمار الأساسية عندما يصرح: "والعنصرية هكذا لا تبدو كتفصيل عرضي بعض الشيء، بل كعنصر متوحد في الجوهر مع الإستدمار، فهي التعبير الأفضل للفعل الكولونيالي"؛ حيث أن العنصرية تختصر العلاقة الجوهرية التي تربط بين الإستدماري والأهلي، كما أن العنصرية الكولونيالية كمجموعة سلوكات وردود أفعال مكتسبة تتكرر منذ الطفولة الأولى، فهي ثابتة ومُعززة بالتربية، وتنغرس عفويا في الحركات والكلمات حتى الأكثر بساطة.

كما كانت الأقلية الأروبية بالجزائر مزيج من أجناس عدة فرنسيين، إيطاليين، إسبانيين ويهود وغيرهم يتباغضون ويتكارهون ويحقد بعضهم على بعض ويتبادلون العنف والجريمة ليصل حد القتل، ونذكر أن اليهود كانوا من الأعراق التي كان يبغضها الأوروبيين والأقدام السوداء في الجزائر وتُمارس ضدها كذلك العنصرية والاحتقار نظرا لخبثهم ونتانتهم كما يرى هتلر في كتابه "كفاحي" لكن في الأخير لما يتعلق الأمر بالإنسان الجزائري والأهلي فإنه يجمعهم كما يرى "فرحات عباس" التضامن الاستعماري، وتوحدهم العنصرية ضد العرب والتي تعد حسب تعبير فرحات عباس الرابطة القوية التي تجمع تلك الطبقات فتجعل منها بناءا مرصوصا.

ومما زاد من هذه البنية والثقافة العنصرية قوة هو تزامنها تقريبا مع النهضة التي طرأت على الصناعات الثقافية الحديثة، وبخاصة ما تعلق بصناعة الكتاب وانتشار الجرائد التي ساهمت بقدر كبير في بناء رأي عام إحتلالي؛ مثل الصحف اليومية الصادرة في الجزائر التي يملكها أصحاب الملايير فجرائد "ليكو دال جيري"، و"لادي بيش ألجيريان"، و"ليكو دوران" و"لادبيش دوليست" التي تغتنم جميع الفرص لتُوتِر العلاقة بين المستعمِر والمستعمُر، حيث تجعل من العنصرية صناعة تصبغ عليها الأرباح وتُدِر عليها الأنعام، في ظل انعدام الأخلاق في زمن اللائكية والرأسمالية المتوحشة ذات الخلفية الإقطاعية.

والتمييز العنصري لا يقتصر على الظواهر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية فحسب، بل يتعداها إلى الأمور الطبيعية والبيولوجية، لتصل درجة تُصنَف فيها الخضر والفواكه بدورها إلى صنفين فرنسية وعربية؛ وهنا كلمة "سلع فرنسية" و"سلع عربية" ليست أسماء بقدر ما هي نعوت لها خلفية إحتقارية ممزوجة بالعنصرية وهذا ما تطرقنا إليه سابقا في ما يخص اللازمات الإحتقارية المستخدمة لدى الأقلية الأوروبية فلما نقول فرنسية بحسب تعبيرهم هي شيء وسيم، وجيد، لبق، مؤدب ومتحضر، ...وغيرها، ولما نقول عربية مثل فاكهة عربية أي أنها فاكهة فاسدة وغير ممتازة وليست بها جودة، ويقال حي عربي، أي حي وسخ نتن فيه رائحة كريهة وأمراض معدية، والعكس صحيح فحي أوروبي أي حي راقي نقي به رائحة زكية وحضارة راقية ومعاملة راقية وسلوكيات متمدنة وهكذا.

أما فيما يتعلق بالثقافة فالعنصرية فيها بلغت أوجها خصوصا فيما تعلق بالتعليم حيث أن هناك مدرستين متمايزتين بفعل فاعل المدرسة الفرنسية والمدرسة الأهلية، ولكل منهما شهادة خاصة ومختلفة عن الأخرى، شهادة فرنسية وشهادة أهلية.

وهنا تظهر العنصرية المقننة النابعة من رحم السياسة التعليمية الفرنسية المبنية على التجهيل وكذا المقولة الشائعة التي تقول: "أن الإنسان الجزائري كائن حيواني دون البشر لا يمكنه أن يتعلم أو يرتقي ويتطور"، لدرجة أن المستوطنون كانوا يعارضون إنشاء مدارس للأهالي، وهذا ما كانت تشهده المدرسة النورمالية ببوزريعة كمدرسة أهلية.

ثانيا:أهم الميكانيزمات السوسيولوجية المُستخدَمة من طرف المستوطنين لتكريس السيطرة والمهانة واللاّإعتراف وممارسة اللامرئية (l'invisible) اتجاه الإنسان الجزائري.

استخدم الأروبيون المحتلون للجزائر ميكانيزمات سوسيونفسية وأنتروبولوجية خبيثة في تكريس السيطرة والمهانة والإذلال والإزدراء واللاّإعتراف والإنكار والإقصاء في حق الإنسان الجزائري، مستهدفين في ذلك الحيلولة بين الإنسان الجزائري وذاته حتى لا يقدر نفسه ولا يثق فيها ويبقى يشعر بالدونية والصِغَر مقابل إعلاء شأن المحتل الأروبي، مؤثرين في ذلك على كيانه وهويته التي يصعب من خلالها ترميمها وجمع أشلائهاوشضايا كينونته الممزقة، ويصبح بعدها إنسانا طيِّعا وعبدا لدى الإنسان الأروبي، ومقتنعا بذلك، غير مبالي بكرامته المهدورة ولا أرضه المغتصبة ولا مستقبله المجهول؛ وقد كانت هاته الميكانيزمات نابعة من

حقول معرفية وُجِهَت جهود مفكريها وأعلامها لخدمة الكولونيالية مثل علم النفس، علم الاجتماع، والأنتروبولوجيا، ومن أهم هاته الميكانيزمات السوسيو نفسية والتي إتسمت بالإستراتيجية بالمفهوم الهابرماسي نذكر التالي:

1-ميكانيزم التفرقة الفضائية (المكانية، المجالية):وهي مستوحاة من النظرية المجالية في ميدان السوسيولوجيا، والتي نجدها متأصلة في الذهنية الأروبية، وفحواها مرتكز على كون أن الإنسان الأروبي متحضر وذو حضارة راقية متفوقة ومتدين يسكن المدينة عكس الجزائري الذي يعيش في البوادي والجبال بصورة تقليدية وينتمي إلى حضارة بالية وتفكير بدائي، وهكذا تنم العنصرية والإحتقار في ضوء هذه النظرية أو الميكانيزم، فالأروبي يسكن المدينة والأهلي في الأرياف والجزائري يسكن الأحياء الراقية المسماة بالأحياء الأروبية والأهلي يسكن في أحياء الصفيح والأكواخ وتسمى بالأحياء العربية.

وهذا ما تؤكده تلك العبارات المتأتية من اللهجة الباتاواتية ومنها فيلاج نيقر، أو قرية زنجية أو قرية عربية، والتي يطلقها المستوطنون على الأرياف والقرى التي يسكنها الجزائريون، وحتى الأحياء في المدن التي يقطنها الجزائريون ومن هذه التسميات القصبة، دوار القربي؛ وحتى السوق الذي يُعد رمز للعمل الوضيع الذي يقوم به الأهلي حيث يلتقي الأروبي بالأهالي، وهذا ما يَرِد في قصص كاغايوس حيث يوجد في السوق مثلا: ماسحي الأحذية (الخدم)، باعة السفنج (العرب)، باعة الزيت (القبائل)، والموتشو، أما الشاوش (الذي يُدخِل الزائر) فتجده في بعض المؤسسات وهذه بعض اللازمات التي يستخدمها الأروبيون وهي تعبير عن العنصرية المكانية ذات الخلفية الإحتقارية،وقد تقوت هذه الفكرة أو الآلية بآلية أخرى سنتناولها بعد حين وهي أن هناك فراغا موروثا لا يمكن مد الجسور عليه بين الجماعة العليا الكاملة البشرية، وبين الجماعة الدنيا الأقل من البشرية الكاملة.

2-ميكانيزم التفرقة الاجتماعية:وهي المستوحاة من النظريات السوسيولوجية وأفكار منظري التنضيد الاجتماعي(la stratification social)، حيث أن الأروبي مثلا يعمل فقط المهن العقلية وذات الجهد البسيط أما الأهلي العربي الخشن فيعمل في مجال المهن اليدوية والتي تتطلب جهد عضلي كبير.

وهذا ما تؤكده قصص زوج سوردي فنجد الاستعمال اللغوي أقوى دليل على ذلك حيث المسلم الموظف كان يُدعى كابورال أو كابو، أما الموظف الأروبي فكان المدير يدعى وينادى باسم سيرجان وشيف والمعلم الأروبي ينادى بوس.

فهذه إحدى قصص كاغايوس (طلاق كاغايوس) حيث لما ذهب كاغايوس بعد طلاق زوجته لزيارة إبنه الذي كان عند مربية عربية وقد وجدها تنادي الطفل باسم يوسف (وليس جوزيف)، فقال له صديق كان يرافقه : "إحذر، فإنك لا تضمن أن يعمدوه على الطريقة العربية، فإذا تعرب فربما يُفضل أن يصبح ماسح أحذية"؛ وكأنما الإنسان الجزائري خُلق ليكون في الطبقة الدنيا من المجتمع وليقوم بالمهن البسيطة،

غير قادر وغير مؤهل للمهن العقلية، وهذا يعد مختصر التفرقة الاجتماعية التي حسب تعبير ألبير ميمي مغروسة في ذهنية الإنسان الأروبي ومعززة بالتربية.

3-ميكانيزم إقصاء الجماعة التي ليس لها وظيفة (التهميش وتبريره): المستوحاة من النظرية الوظيفية، فهذا "أغشت بيرك" يفسر تحول فرنسا عن أصدقائها القدامى ببعض الضرورات الاجتماعية، ليُعلل إهمال وتهميش شريحة مهمة من المجتمع وهي المتمثلة في الأهالي، فإذا كان علم الأحياء يعترف بقيمة القاعدة الشهيرة "الوظيفة تحدث العضو" مثلما جاء في بعض كتاباته، فليس من الخطأ القول بأن لكل حاجة اجتماعية تفرز الطبيعة مؤسسة مناسبة، كما أن العلم يسجل في دراسته للأجسام الحية "ضمور للأعضاء ناتج عن إنعدام المنفعة الفيزيولوجية"، فعلم الاجتماع في تحليله للمجتمع يلاحظ إقصاء الجماعات التي تفقد وظيفتها.

وهكذا يتم إقصاء الأهالي وتهميشهم بحكم أنهم لا وظيفة لهم ولا فائدة ترجى منهم، لأن الإنسان الأهلي مخلوق دون الصفة البشرية تقريبا وهذا ما نستجديه في تلك اللازمات مثل: (راتون غريب: rats raton, الفئران، بوريكو: حمار) ، ولهذا نجد المستوطنون في الجزائر يعارضون الإصلاحات الخاصة بالأهالي بكل إصرار كما يؤكده المؤرخ شارل أندري جوليان.

وهذا ما تطرقنا إليه سالفا عندما تناولنا العنصرية في التعليم حيث هناك مدرسة فرنسية وأخرى أهلية ولكل منهما شهادة خاصة به حيث يسود الإعتقاد لدى المستوطنين "أن الإنسان الجزائري كائن حيواني دون البشري، متخلف لا يمكنه التعلم ولا الرقي ولا التطور" وبهذا المفهوم حسبهم الجزائري كائن لا فائدة فيه إلا استخدامه وفقط في تلك الأعمال البسيطة والمتواضعة والمهينة التي يعملها الحيوان.

4-ميكانيزم التفوق الثقافي والحضاري:وتضم تلك الميكانيزمات المتأتية من أفكار ومنظري مركزية الثقافة الأروبية وتفوق الحضارة الغربية، وهذا ما يؤكده عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركايم الذي لا يرى للحضارة سوى صورة واحدة ويحصرها في المرجعية الغربية فقط ويدعو إلى تعميمها والأخذ بها كقوة دمج حضاري عظمى يجب أن تخضع لها كل الثقافات؛ وتدخل هذه الأفكار في إطار شرعنة الإحتلال الإستعماري والإستيطان المتوحش الذي يُقبِل عليه الساسة والعسكريين في الميدان ويبرره وينظر له المفكرون في إصداراتهم العلمية والفكرية، فإلى جانب دوركايم نجد كذلك دوتوكفيل وآخرون...

وهذا ما جعل "ألبير ميمي" يلصق هذه الصفة بالإستدماري ويجعلها أحد مقوماته في قوله: "وهذا هو الإستدماري الذي يعتقد أنه يكمل مهمة يمليها عليه كونه حاملا لقيم الحضارة والتاريخ"؛ وهنا علينا الرجوع إلى كتابات "أوليفييه لوكوغرانميزون" الذي تطرق إلى معالجة تحقير الذات العربية في كتابه الشهير "الإستعمار...الإبادة" عندما وضع تفرقة بين الزنجي والعربي في تصور الإستعمار، فإذا كان الزنجي قد ظهر في صورة إنسان متوحش غير قادر على التطور كما يقول أندري جيد، فإن العربي علىخلاف ذلك فكان ينظر إليه نظرة مغايرة فهو "بربري يقف ضد الحضارة الغربية وهو إنسان مضر على الدوام".

ولهذا يصف عبد الغني مغربي المجتمع الكولونيالي في الجزائر الذي وُلِدت فيه الأقلية الأروبية بأنه مجتمع مغلق يخضع لمنطق إقصاء وتشيين الإنسان الجزائري؛ والمستوطنون بحكم إنتمائهم لأمة فاتحة منتصرة ومسيطرة وممثلة لقيم الحضارة الغربية، فضلوا النظر إلى أنفسهم عبر الإنسان الأهلي المنبهر أمام إنجازاتهم، قصد إكتشاف عمق تيهه وإغترابه.

وهذا ما تؤكده تلك االلازمات والعبارات المتداولة بين الأقدام السوداء مثل البيكو التي تطرقنا إليها سابقا، العرب الحمقى، شرسون، متقهقرون نحو الصحراء، وبدو متعصبون للغاية، وبدائيون، والتي تعني أن الأهلي يستمد ثقافته من حضارة أدنى؛ وهذا ما جعل أبو القاسم سعد الله يسمي هذا الميكانيزم القائم على نظرية التفوق الحضاري العنصري بالإرهاب الثقافي

وهذا الميكانيزم القائم على التفوق الحضاري أتى بسلوكيات كولونيالية أخرى مشينة، حيث يعتبر هذا الميكانيزم المحور الجوهري التي تقوم عليه العديد من المظريات الأخرى، التي مازالت إلى يومنا هذا تُستَخدم كإرهاب فكري لإحباط وإضعاف الأخر، وهذا ما أتت به إصدارات مثل: كتاب نهاية التاريخ لصاحبه فوكوياما، وصدام الحضارات لصامويل هنتغتون.

5-ميكانيزم إحياء الداروينية ونظرية تفوق العرق الأروبي:وهي المستوحاة من نظرية التطور الاجتماعي والتي تقوم على أن هناك أعراق أرقى من الأخرى وبعض هذه الأعراق قابلة للتطور وبعضها الأخر غير قابل للتطور، فالبنية الفكرية والذهنية الكولونيالية للمستوطنيين دعمت هذا المنطلق من خلال مختلف الإصدارات الفكرية والأدبية التي أقرت تفوق العرق الأروبي وسموه عكس العرق الجزائري الذي أُعتُبِر دون البشري يقترب إلى الحيوان، وهذا ما جعل الأروبيون يعمدون إلى التفرقة الاجتماعية والمكانية التي تطرقنا إليهما سابقا.

و نادى R. Ricoux في جلسة 09 جويلية 1879 في المؤتمر العالمي للديمغرافيا بضرورة خلق عرق جديد من خلال ترقية العرق الجزائري عن طريق تشجيع الزواج المختلط الأروبي وهنا يتجلى الإعتماد المبالغ فيه على نظرية داروين "حول العرق"؛والتي تظهر كذلك في تصريحات مؤسس النظام التربوي الإحتلالي "جيل فيري" أمام مجلس الشيوخ سنة 1885 عندما قال: "أنه يجب أن نقولها بصراحة لا غبار عليها، إن للأجناس السامية حق على الأجناس الدنيا...لأن عليها واجب تجاهها لأنها مسؤولة عن تمدنها"؛ وهذا ما تؤكده كذلك ثقافتهم الشعبية المتمثلة في قصص كاغايوس عندما يتكلم عن الأهلي "إن الإنسان الأهلي ينتمي إلى سلالة دنيا...ولا يمكن أن يرتقي بنفسه من خلال جهوده الخاصة ليكون في مستوى الأروبي".

ولكن فضولنا المعرفي دفعنا للبحث عن جذور هذه النظرية و تطبيقاتها والتنظير لها على مستوى القادة العسكريين، والسياسين... وغيرهم من مهندسي البناء الفكري الكولونيالي.

فوجدنا الإجابة في مرحلة الأمير عبد القادر وزمن الإنتصارات التي كان يحققها والتي أثارت مشاعر التقدير والإعجاب بالمجاهدين الجزائريين لدى الأهالي والمستوطنين على حد سواء، وحتى الجنود الفرنسيين والأروبيين، وهنا أصّر كل من الكولونيل دي مونتانياك، والدوق دومال، والقبطان ريشارد على القضاء على هذه المشاعر؛ فلجأوا إلى مختلف الحيل لتحقيق ذلك، فوجدوا عندها في نظريات العرق لداروين الحل الأنسب لذلك، فقاموا بإجراءات وأصدروا تعليمات وأوامر دقيقة، تهدف كلها إلى إثبات تفوق أحد الأجناس والحضارات على الأخرى، وهذا من أجل ترسيخ في مخيلة وذهنية الجزائريين النقص الخلقي والبيولوجي (الحتمية البيولوجية)، وهنا نستذكر قصة "الفيل المروض" التي تقدم في محاضرات التنمية البشرية وخصوصا تلك المتعلقة "بالإعتقاد الذهني"، فهذا الفيل حسب الراوي تم وضعه في حديقة الحيوان وربطه بسلسلة في مؤخرتها صخرة كبيرة فلوحظ أن هذا الفيل في البداية قام بعدة محاولات لتحرير نفسه ولكن مع مرور الوقت والسنوات توقف عن ذلك فتم عندها استبدال الصخرة الثقيلة بجذع خشبي بنفس حجم الصخرة لكنه خفيف جدا على الفيل، فلوحظ أن هذا الفيل لم يتفطن لخفة هذا الجذع لأنه مازال في إعتقاده أنها صخرة وبقي عندها الفيل مروضا، وهكذا فقد كان الهدف من هذا الميكانيزم هو ترسيخ في إعتقاد الجزائريين أنهم جنس خلق متخلف ولا يمكنه الإرتقاء والتطور بينما الإنسان الأبيض الأروبي خلق وسيم متطور مثقف ومتعلم ومتهذب... وبالتالي هنا إحكام السيطرة الفكرية على الجزائريين وترسيخ هاته المعتقدات.

6-ميكانيزم الوصم الإجتماعي:والذي يضم مختلف الميكانيزمات التي تقوم على أساس التسمية وإطلاق النعوت على الأخرين والتي تكون في الغالب دونية وتحقيرية ومهينة، هدفها إشعار الأخر بالدونية وإلصاق مختلف الأوصاف الدنيئة به، وهذا ما يطلق عليه مصطفى الأشرف بالنظرية النقيض (antithèse)حيث نجد في هذا الميكانيزم الإستخدام العكسي لأطروحة المفكر الإجتماعي "تننبوم" حول الوصم الاجتماعي، فهذا الميكانيزم يُعد المرحلة التطبيقية للميكانيزمات السابقة الخاصة بإحياء الدارونية وتفوق العرق الأروبي، ونظرية التفوق الحضاري، وهذا من خلال مختلف العبارات والألفاظ التي كان يطلقها المستوطنون على الأهالي وهي كثيرة جدا إذا رُحنا نحصيها مما جعل الأستاذ أبو القاسم سعد الله يصرح بأنه تستحق هذه العبارات على كثرتها تخصيص لها معجم.

ومن هذه العبارات التي ورت في قصص كاغايوس الرخيصة نذكر لازمة بوريكو-أي حمار- ولازمة "الصرّاك" أي السارق التي جاءت منها كلمة Serraquage، وهذا ما ورد في إحدى قصص كاغايوس عندما قال "أن الحياة سهلة جدا بالنسبة إليه وأنه لا يزعج نفسه بالسرقة، ومع ذلك كان أكثر الناس إمتعاضا من فعل ذلك، لأنه إذا فعل قد يعني أنه يشبه العرب...تلك السلالة المكروهة".

وقصة أخرى جاءت في مجلة بابالويت جرت في قصر الحكومة بمدينة الجزائر بين رجل مهذب حسن الهندام وحمّال أهلي:

– **الرجل المهذب**: أنظر إلى هنا، إبحث عن عربيين غير لصين يمكنني أن أثق فيهما، لحمل صندوقين من الملابس للغسيل إلى منزلي.

– **الرجل الأهلي**: ياسيدي هذين العربيين لا وجود لهما.

بالإضافة إلى لازمة النيقرو وتعني الأسود، ولازمة فاطمة أو الفاطمات والتي تعني الخادمة تارة وتارة أخرى العاهرات، المزابي، الشاوش، البوريكو، تيرس...وغيرها.

وكل هذه العبارات والألفاظ تهدف لتعزيز فكرة أن الأهلي بالإضافة إلى أنه منحط عرقيا، فهو كذلك يحمل كل الصفات البذيئة والسيئة من سرقة، غش، خداع،...وغيرها، وبالتالي إتمام مهمة الدوق دومال، الكولونيل دي مونتانيال والقبطان ريشار، كما أن هذا الميكانيزم يسعى به المستوطنون لنزع التهمة والأخلاق الدنيئة والسلوكيات اللاإنسانية والإجرامية وإلقائها عن الأخر كإجراء شرعنة العنف والجريمة والإبادة والتعذيب المرتكب ضدالأهالي وهذا ما يؤكده لما تطرقنا سابقا لـ: دفيد ماتزا David Matza الذي يرى أن هذه القصص وما تحمله من أفكار والفاظ ونعوت مشينة عن الأخر هدفها تبرءة ذمة المستوطنين وإنكار المسؤولية وإلقائها على الأخر الأهلي.

7–ميكانيزم التضامن الإستعماري:يعد عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم من أهم من عالج موضوع التضامن الإجتماعي حيث ميّز بين التضامن الآلي والتضامن العضوي:

فيسود الأول في المجتمعات البدائية أو التقليدية التي تتميز بتضامن قوي يكون الأفراد مترابطين فيما بينهم مشكلين تجانس في الأفكار والمعتقدات، كما تتصف هذه المجتمعات بعدد قليل من السكان، يكون التخصص في العمل بسيط نظرا للتشابه الكبير في الحاجات والرغبات والنشاطات، ويغلب على أفرادها عواطف ومشاعر مشتركة وروح جمعية قوية، والمكانة الإجتماعية فيها تكون وراثية، في حين يسود التضامن العضوي في المجتمعات الحديثة التي تتميز بتقسيم للعمل ويكون أعضاء المجتمع فيه مصدر تباين وإختلاف في العادات والمعتقدات والآراء والسلوكيات ويزداد تخصص العمل وتنتج المكانة الإجتماعية فيها عن الكفاءة والمهارة والخبرة الفردية...

ولكن يشير فرحات عباس إلى نمط آخر من التضامن الإجتماعي وهو "التضامن الإستعماري" ويؤكد على أنها ليست كلمة جوفاء، فمجتمع المستوطنين في الجزائر متكون من أعراق مختلفة متباينة الأجناس والجنسيات فالفرنسيون، والإيطاليون، والإسبانيون وحتى اليهود...وغيرهم الذين كانوا يكوّنون هذا المجتمع يتكارهون وتتباغضون ويتنافسون بحقد ولكن يجمعهم التضامن الإستعماري القائم على العنصرية وكره العربي وإحتقار الإنسان الأهلي والدفاع على النظام الإستعماري وتفوق العرق الأبيض والتفوق الحضاري؛ فالأروبي الذي يهجر بلاده ويستوطن في الجزائر يجد بسرعة عمل بفضل التضامن الذي يلقاه من المستوطنين وبأجور مرتفعة أما البطالة فهي مصير العربي فقط؛ وبفضل التضامن الإستعماري تكونت كتلة

متجانسة متآزرة متراصة البنيان تفترق على كل المسائل ولكنها تلتقي وتجتمع وتتضامن للسيطرة على الإنسان الأهلي بكل وسائل العنف المادي والمعنوي.

فالتضامن الإستعماري كالذي كان سائد في المجتمع الكولونيالي في الجزائر بإعتباره نمط من أنماط التضامن الاجتماعي، تأخذ صفات ومميزات عدة من كلتا نمطي التضامن الإجتماعي التي تحدث عنها دوركايم وهما الآلي والعضوي، فنجد هذا النمط كذلك يجمع بين تناقضات وإختلافات هذين النمطين بصورة تثير فضول الباحثين والمهتمين ببناء الذهنية الكولونيالية لدى الأقلية الأروبية بالجزائر، ويمكن إختصار التضامن الإستعماري في الخصائص التالية:

- نجد المكانة الاجتماعية فيه تنتج عن الكفاءة إذا كان ذلك يعني المستوطنين وفي صالحهم تصبح وراثية في صالح المستوطنين دائما إذا تعلق الأمر بعمل الأهلي، حيث نجدهم يحرصون أشد الحرص على عدم وصول الأهلي إلى مستوى الإنسان الأروبي، وهذا ما تفسره تلك الضغوطات التي كان يقوم بها المستوطنون على السلطات الفرنسية لعدم فتح المدارس للأهالي.

-كما نجد في هذا المجتمع تسود بين أفراده العواطف والمشاعر المختلفة نظرا لإنتمائاتهم الجغرافية المتعددة (سويسريون، ألمان، إسبان، إيطاليين، كورسيكيون، مالطيون،...وغيرهم) لكن تتحد وتتفق وتلتقي مشاعرهم وعواطفهم فيما يتعلق بعلاقتهم مع الإنسان الأهلي حيث تظهر عندها مخالب الحقد والكراهية والإحتقار والعنصرية للعربي والمسلم.

-كما تتنوع نشاطاتهم ويزداد تخصصهم تعقيدا بحسب متطلبات الإقتصاد الرأسمالي، ولكن تختفي التخصصات وتلتقي نشاطاتهم إلى درجة تصبح تخصص واحد تحت مسمى واحد إذا ما قسمنا العمل إلى عمل سهل لا يتطلب جهد عضلي فقط المجهود العقلي، وعمل صعب يدوي كان أم حرفي يتطلب جهد عضلي كبير، فإننا نجد المستوطنون لا يعملون إلا في القسم الأول من الوظائف في حين يعمل الجزائريون في المهن اليدوية والحرفية التي تتطلب جهد بدني كبير.

- وتسود الروح الفردية لدى المستوطنين في المنافسة التي تَمَلُك المؤسسات الإقتصادية وإغتصاب الأراضي الجزائرية وإستعباد الإنسان الأهلي كخماس في أرضه، وحقوله وبساتينه المغتصبة، في حين تبرز الملكية العامة من خلال تصريحاتهم التي تدعم تَمَلُك فرنسا للجزائر والجزائريين وما تقوم به فقط هو إسترجاع أراضيها التي سُلِبت منها بعد سقوط الدولة الرومانية، ومفاد هذه التصريحات "أنه كما يفصل نهر السين بين الأراضي الفرنيسة يفصل البحر الأبيض المتوسط بين فرنسا والجزائر".

- و تزداد الروابط بين المستوطنين هشاشة بسبب شيوع الفردانية المعززة من النظام الرأسمالي الممزوج بالإقطاعية، وكذا إختلاف إنتماءاتهم الجغرافية كذلك، فيتكارهون ويتباغضون كما يقول فرحات عباس فيما بينهم ولكن لما يتعلق الأمر بالأهلي فإنه تقوى وتبرز بينهم (أي المستوطنين) الروح الجمعية وتقوى

الروابط الاجتماعية وتزداد متانة بمقومات العنصرية وإحتقار الأهلي من جهة والإنتماء إلى العرق الأروبي المتفوق وإلى حضارة متفوقة وراقية وإلى أمة فاتحة.

– وهكذا يجمع التضامن الإستعماري بين متناقضات التضامن الآلي والعضوي لأجل إحكام السيطرة على الإنسان الأهلي وإغتصاب وطنه وتقوية الروح الجمعية لدى الأقلية الأروبية وهذا ما يتجلى من خلال تلك المظاهرات (1961) المناهضة لديغول والمنتصرة لمقولة "الجزائر الفرنسية"، هذا على المستوى المحلي أما على المستوى الدولي فيظهر لنا التضامن الإستعماري من خلال ذلك الدعم والسند الذي قدمه كل من فرانكو، وسالازار، والصهيونية العالمية لمناصري الجزائر الفرنسية بدءا من المتمردين الذين قاموا بالإنقلاب ضد ديغول ونهاية بالتحالفات والدعم الذي لقيته منظمة الجيش السري (OAS) الإرهابية الذي وصل حد التحالف بينها وبين منظمة الأرغون الإسرائلية الصهيونية.

والتضامن الإستعماري كمقاربة نظرية يمكن أن نفسر من خلاله الدعم الذي لقيته فرنسا عند إحتلالها للجزائر من كل من الدول الأروبية وحتى روسيا والولايات المتحدة الأمريكية، ويفسر لنا كذلك ذلك الدعم الذي لقيته فرنسا بعد إندلاع الثورة التحريرية من عديد الدول الإستعمارية وحتى من الـ NATO الذي يُعد رمز التضامن الإستعماري بقيادة الجنرال الأمريكي إيزنهاور وآخرين.

كما يمكن أن يفسر لنا ذلك التكالب على العراق قبل إحتلالهم سنة 2003،سوريا، السودان، وغيرها، وما يؤكد هذه المقارنة النظرية وتجذرها في الفكر الاجتماعي الإسلامي حيث نجد رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم في تَنَبُّئِه لما يوصف بالتضامن الإستعماري في الحديثه الذي ورد في سنن أبي داود في الجزء الرابع في كتاب الملاحم تحت باب "**في تداعي الأمم على الإسلام**":

«**حَدَّثَنَا عَبْد الرَّحْمَن ابْن ابْرَاهِيم الدِمَشْقِي، ثَنَا بشر ابن بكر، ثنا ابن جَابِر، حَدَثَنِي أَبُو عَبْد السَلاَم، عَن ثَوبَان، قَالَ: قَالَ رَسُول الله صَلَى اللَه عَلَيه وَسَلَم "يُوشِكُ الأُمَم أَنْ تَتَدَاعَى عَلَيْكُم كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَة عَلَى قَصْعَتِهَا" فَقَالَ قَائِل وَمِن قِلَّة نَحْنُ يَومَئِذٍ؟ قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كُثُر، وَلَكِنَكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَيْل، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَه مِن صُدُورِ عَدُوِكُم المَهَابَة مِنْكُم وَلَيَقْذِفَنَ اللَهُ فِي قُلُوبِكُم الوَهْنَ" فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُول اللَه، وَمَا الوَهْن؟ قَالَ " حُبُّ الدُنْيَا وَكَرَاهِيَة المَوت**».

8–صُنع الغرابة: هي العملية التي بموجبها تصبح ممارسة ثقافية حضارية ما مثيرة ومدهشة في اختلافها عن منظور المستعمِر العادي،ومن المفارقات أنه مع اضطلاع الأوروبيين بتعليم المحليين وأبناء الثقافات الأصلية، بدأ أطفال المدارس في الأغلب الأعم ينظرون إلى سبل عيشهم المحلية ونباتاتهم وحيوانات بيئاتهم المحلية بصفتها غريبة، مع اعتبار النظائر الأوروبية لهذه المفردات هي ‘‘الطبيعية’’ أو ‘‘العادية"؛ وهذا الميكانيزم خطير بحكم أنه يفسد على الإنسان الأصلي من خلال التعليم واستخدام الحجج والمبررات المؤدلجة ذات القوة الإقناعية بوصلته وبصيرته في النظر إلى كينونته بصفة إحتقارية

وإزدرائية، ويصبح يرى بعدها كل ما يعيشه، وكل ما يملكه، على أنه مرادف للجهل والتخلف والدونية، وهو ما يفقد الإنسان الأصلي ثقته في نفسه وتقديره لذاته وهويته، والأخطر من ذلك أنه يمس عناصر مهمة في تكوين هويته مثل اللغة الأصلية، وهذا ما يجعله يسهل عليه الدخول في حالة من الإعتراب النفسي والاجتماعي.

9-الإخلال (Abrogation):ويستخدم من منظورين من جهة رفض استخدام لغة المستعمِر بطريقة صحيحة أو بالأسلوب المتفق عليه، حيث يعمل المستعمِر إلى جعل المستعمَر ينطق لغة المستعمِر بطريقة بدائية مختلة النطق تثير الإشمئزاز بكثرة الأخطاء، وهذا ما يورده إيمانويل سيفان في دراسته حيث كان يطلق الجزائريون على الآخرالمحترم مثلا كلمة Tuبدل كلمة Vousللمجاملة وهو ما جعل الأروبيون المستوطنون يطلقون على الجزائريون اسم Tu بطريقة احتقارية.

وهذا ما يشير إليه الباحث ايمانويل سيفان لما جاء في أطروحة لانلي A. LANLY عن فرنسيي شمال إفريقيا سنة 1962 في الفصل المعنون بـ 'اللقاء بين العربية والفرنسية الدارجة':

"هناك ميزة أخرى تتميز بها فرنسية شمال إفريقيا وهي استعمال الضمير أنت Tutoiement، فهي تنسب جزئيا للمتحدثين بالعربية أنفسهم، ما دام المرء لا يستعمل (أنتم) بالعربية، وأن أولئك المتكلمين بالعربية الذين بدؤوا استعمال الفرنسية بدؤوا بضمير (أنت) عندما يخاطبون الأوروبيين وكان رد هؤلاء بالمثل أيضا،...وأن الأهالي الذين يعلمون أن اللغة الفرنسية تستعمل (أنتم) في علاقات المجاملة، أصبحوا يرفضون استعمال (أنت)، لأنه يرمز إلى تفوق المستعمرين، وطلبوا حذفها من الإدارة ومن الحياة الاجتماعية عموما".

ومن جهة أخرى يستخدم ميكانيزم الإخلال في اللغة الأم حيث يعتمد التضييق على تعليم اللغة الفصحى وتشجيع استخدام الدارجة والعامية في الحياة الاجتماعية والإدارات العمومية، لتصبح هي اللغة الأصلية، ولأن الدارجة ضعيفة المبنى والأصل يسهل إلصاق التخلف والدونية بها مما يؤدي إلى نفور أهلها عنها وبالتالي فقدان مرتكز ومرجع مهم في بناء الهوية الخالصة، وهذا يذكرنا بقرارات رواد الحملات الصليبية التي كانت تستهدف نشر الدارجة المصرية في كامل الوطن العربي بدل اللغة العربية الفصحى؛ وهذا ما يؤكده ايمانويل سيفان: "...فإن اللغة العربية كانت تعامل بكراهية بالغة، كقولهم عنها أنها لغة لا نفع فيها، وصعبة، وعنيفة، وعنيفة، ووحشية"؛ونتيجة لهذا أصبحت اللغة العربية اليوم مرادف للتخلف عكس الفرنسية التي أصبح ينظر إليها على أنها لغة التطور والتحضر والتمدن الغربي، وأصبح ينظر إلى المتكلم بالعربية نظرة أقل احترام من النظرة إلى المتكلم بالفرنسية.

10-التفرقة على أساس العرق والدم والتبرير التاريخي المزيف:من المبادئ التي كان يقوم المستعمر الفرنسي بتطبيقها في الجزائر هو محاولة التفرقة العرقية بين أفراده، وهو اعتبار أن المجتمع الجزائري مكون من عنصرين أو عرقين مختلفين كل الاختلاف، وهما العنصر البربري الذي يمتد بجذورها حسب

الزعم الاستعماري إلى العرق الآري الذي استوطن بلاد الغال في أوروبا و وَفَد منها إلى شمال إفريقيا، والعنصر العربي الذي يعتبرونه وافدا على البلاد في غزوات همجية ما انفكت تتلاحق بعد الفتح الإسلامي، واستوطنت البلاد لتنافس أهلها الأصليين لقمة العيش، إلى أن جاء الفرنسيون (أبناء عمومة البربر) ليخلصوهم من وطأة الاحتلال العربي (...!) ومن المؤكد أن هذه النزعة العنصرية ما تزال سائدة إلى الآن لدى بعض المثقفين المتأثرين بتلك الدراسات التي كانت تكرس هذا المفهوم لدى الجزائريين، ولم يُدرَس المجتمع الجزائري قط (في مقابل) كوحدة متكاملة انصهرت أجزاؤها بفعل عوامل فيزيقية، واجتماعية، وثقافية، صيرتها مجتمعا واحدا ذا ثقافة متجانسة العناصر في ثوابتها العامة، بحيث لم يعد فيها للأصل العرقي أي أثر بعد امتزاج ثقافي واجتماعي تم بنجاح باهر بفضل الإسلام الصادق للسكان منذ قرون عديدة وحتى الساعة.

ويذكرنا هذا بما يسمى بالقضية البربرية كما يشرحها الكاتب والمفكر الجزائري أحمد بن نعمان عندما يعالج قضية تلك الجهود الخبيثة التي عمل المستعمِر الفرنسي من خلالها تحريض السكان الأمازيغ على المطالبة بوطن خاص بهم، وتشجيع التفرقة بينهم وبين السكان العرب من خلال الأطروحة القائلة بأن البربر يعود أصلهم إلى سكان الغال بأروبا أو إلى العرق الآري بمعنى أنهم ينتمون إلى نفس العرق الأروبي، وأن العرب هم سكان محتلون لبلادهم أي بلاد الأمازيغ، وأن فرنسا أتت لتخلصهم (أي الأمازيغ) من هؤلاء المحتلون (العرب).

وضمن نفس السياق نجد النيوكولونيالية تعتمد مقاربات نظرية من هذا القبيل، ومبررات فكرية متجددة، فإضافة إلى نظرية الفوضى الخلاقة نجد نظرية الدم التي قدمها الجنرال الأمريكي المتقاعد رالف بيترز Ralf Peters وعززتها أطروحات وزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر، وكذا أفكار ونظريات المفكر الأمريكي زبينغور بريجنسكي عن تقسيم وتأسيس دويلات لثقافات عرقية وإثنيات دينية وطوائف مذهبية.

خاتمة:

هذه ثلة من الميكانيزمات والآليات المتعددة والتي مازالت تستخدم إلى يومنا هذا لتحقيق العديد من الأهداف الغربية الخبيثة وخاصة السيطرة على المجتمعات وإستغلال خيراتها وإستعباد مواطنيها، وتنْبُع هذه الميكانيزمات من العقيدة الكولونيالية المبنية على العنصرية القائمة على ثلاث عناصر هامة حسب ألبير ميمي: 1-الكشف وتبيان الفوارق بين المستدمِر والمستدمَر، 2-تثمين هذه الفوارق لصالح المستدمِر وعلى حساب المستدمَر، 3-مد هذه الفوارق نحو المطلق لتأكيد كينونة نهائية لها والسعي لكي تصبح هكذا.

إن مقولة أبو القاسم سعد الله رحمه الله 'لم يكن الاستعمار عسكريا بحتا وإنما ثقافيا ومعرفيا'؛ جاءت مُعبِّرة وواصفة لآليات الهيمنة والتسلط الممارسة من قبل الإنسان الكولونيالي الأروبي اتجاه الإنسان المستعمَر الجزائري، هاته الآليات التي تتصف بالمكر وتصيب في مقتل، وتنخر كيان المصاب ووجوده

بإصرار رهيب، وهي مستمده من العلوم الاجتماعية الاستعمارية، وهذا ما يكشفه جيرارد ليكرك في كتابه 'الأنتروبولوجيا والاستعمار': "أن الأمبريالية الاستعمارية المعاصرة تتوافق زمنيا مع الأنتروبولوجيا الاستعمارية، فكلتاهما تعودان إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر"، وتكمن خطورة هاته العلوم أنها تدرس المجتمعات من خلال البحث في فلكلورها وتناقضاتها ونزعاتها الطائفية والقبلية وقضايا الثأر والتنازع والاختلاف، ثم تسخيرها لأطماع السلط السياسية لتدبير إشعال الحروب الأهلية والطائفية وبالتالي تُضعِف المجتمعات المستهدفة.

وجاءت نظرية ما بعد الحداثة كحركة ثقافية مضادة ومقاومة ظهرت في مرحلة ما بعد الحداثة للوقوف في وجه التغريب، التهميش، التعالي، والهيمنة الغربية المغلوطة، ولم يقتصر كذلك منظروا النيوكولونيالية على مفكري العالم الثالث، فقد توسعت لتضم بشكل من الأشكال مفكرين من المنظومة الغربية الذين ثاروا على الثقافة البيضاء ومركزيتها، فإعتبروها ثقافة أسطورية حالمة وخيالية، مبنية على خطاب الإخضاع، الإستعلاء، والهيمنة، العنصرية، التمييز اللوني، العرقي، الديني، الطائفي والطبقي.

وبعد معرفة معاناة التابع بمهوم المفكرين الهنديين هومي بهابها وسبيفاك غاياتري اللذين يثيران جدلية إستطاعة وقدرة التابع على التكلم من عدمه، متفقين على أهمية نزول النخبة من برجها العاجي والإنخراط في توعية التابع ومساعدته على إسماع صوته؛ وتعتبر هكذا دراسات كالتي بين أيدينا مساهمة في هذا المسعى في الرفع من الوعي بأزماتنا وورطتنا الحضارية التي تعود في جزء منها إلى إرتدادات المرحلة الكولونيالية ومشاكل إعادة الإنتاج للسلوكيات الكولونيالية، وفي جزء آخر حسب علي شريعتي ومالك بن نبي إلى القابلية للإستحمار والقابلية للإستعمار.

الهوامش والإحالات:

[1] ألبير ميمي،**صورة المستعمر**، ترجمة ميشال سطوف، منشورات Anep، الجزائر، 2007.

[2] جون سكوت، **علم الاجتماع المفاهيم الأساسية**، ترجمة محمد عثمان، ط1، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، .2009

[4] سيفان إيمانويل،**الإستعمار والثقافة الشعبية في الجزائر**، ترجمة أبي القاسم سعد الله، جريدة السلام، العدد129، ليوم1991/04/07، ص06؛ نقلا عن: دحمان تواتي، منظمة الجيش السري، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008.

[5] الطيبيمحمد، **الجزائر عشية الغزو الإحتلالي**، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

[6] فرحات عباس، **ليل الإستعمار**، ترجمة أبو بكر رحال، وزارة الثقافة، الجزائر، 2009.

[7] سماتي محفوظ،، **الأمة الجزائرية نشأتها وتطورها**، ترجمة محمد الصغير بناني، عبد العزيز بوشعيب، منشورات دحلب، الجزائر، 2007.

[8] أني راي قولدزيغر، **جذور حرب الجزائر**، ترجمة ورد لبنان،دار القصبة، الجزائر، 2005.

[9]حميد عبد القادر،**التأسيس الفعلي للذات العربية**،**www.elkhaber.com**،شوهد في 2012/12/16.

[10]Megherbi Abdelghani, **les algériens au mémoire du cinéma colonial**,SNED, Alger,**1982** ، نقلا عن: تواتي دحمان ، **منظمة الجيش السري**، مؤسسة كوشكار للنشر،والتوزيع، الجزائ، 2008؛

[11] كمال كاتب، **أروبيون يهود وأهالي بالجزائر 1830–1962**، ترجمة رمضان زبدي، دار المعرفة، الجزائر، 2011.

[12] مصطفى الأشرف،**الجزائر الأمة والمجتمع**، ترجمة حنفي بن عيسى،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

[13] جمال معتوق، الفضيل رتيمي، **المبسط في علم الاجتماع**، ط1، دار بن مرابط، الجزائر، 2008.

[14] أبي داود، **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الجزء الرابع، كتاب الملاحم، المكتبة العصرية، لبنان، بدون سنة.

[15] مبروك بوطقوق، عرض كتاب نفسية الشعب الجزائري، www.anthropos.com، شوهد في 2016/04/16.